



فصلية ثقافية

تصدر عن:

مؤسسة عُمان للصحافة
والنشر والاعلان

الرئيس التنفيذي

عبدالله بن ناصر الرحبي

رئيس التحرير

سيف الرحبي

مدير التحرير

طالب المعمرى

الاشراف الفني والاعراج

خلف العبري

نزوى

فصلية ثقافية - العدد الحادي والستون



NIZWA 2010 - 61

61

العدد الحادي والستون

يناير 2010 م - محرم 1431 هـ

عنوان المراسلة:

ص.ب 855 الرمز البريدي: 117
الوادي الكبير، مسقط - سلطنة عُمان
هاتف: 24601608 (00968)
فاكس: 24694254 (00968)

الأسعار:

سلطنة عُمان ريال واحد - الإمارات
10 دراهم - قطر 15 ريالاً - البحرين
1.5 دينار - الكويت 1.5 دينار -
السعودية 15 ريالاً - الأردن 1.5 دينار
- سوريا 75 ليرة - لبنان 3000 ليرة
- مصر 4 جنيهات - السودان 125
جنيهاً - تونس ديناراً - الجزائر
125 ديناراً - ليبيا 1.5 دينار -
المغرب 20 درهماً - اليمن 90 ريالاً
- المملكة المتحدة جنيهان - أمريكا 3
دولارات - فرنسا 20 فرنكاً - إيطاليا
4560 ليرة.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد: 5 ريالات عُمانية، للمؤسسات:
10 ريالات عُمانية - تراجع قسيمة
الاشتراك.

ويمكن للراغبين في الاشتراك مخاطبة
إدارة التوزيع لمجلة «نزوى» على
العنوان التالي:

مؤسسة عُمان للصحافة والنشر
والاعلان ص.ب: 3002 - الرمز
البريدي 112 روي - سلطنة عُمان.

عالم الإنشاء المغلق

ماركيوز ونقد لغة السياسة

عماد عبد اللطيف

ناقد وأكاديمي من مصر

«لغة السياسة هي درع النظام القائم. والمعارضة الجذرية تتحقق عن طريق تنمية لغتها الخاصة، على نحو عفوي وغير واع، ضد واحد من أكثر «الأسلحة السرية» فعالية في السيطرة: فليست لغة القانون والنظام القائمين، التي هي لغة المحاكم والشرطة، تجليا بسيطا للقمع، بل هي القمع ذاته».

«إن مجتمع الوفرة عاهر في خطابه، في ابتساماته، في سياسيه وخطبائه».

ماركيوز ١٩٦٩

«إذا كان ثمة صوت واحد فإنه لا يستحق أن يسمع. إذا كان ثمة مذاق واحد فإنه لن يجلب إلا السخط. إذا كان ثمة مادة واحدة يصنع منها كل شيء فسوف تندثر الصلابة».

كويو

قدم الفيلسوف الألماني هربرت ماركيوز (١٨٩٨-١٩٧٩) مشروعاً مهماً لنقد لغة السياسة^(١)، استند فيه إلى أطر فلسفية مثلت رافداً أساسياً من روافد نقد لغة السياسة: أهمها الفلسفة الماركسية، والنظرية النقدية التي تأسست في معهد فرانكفورت للعلوم الاجتماعية، والتي تعرف باسم «مدرسة فرانكفورت». لقد كانت «النظرية النقدية» مشروعاً فلسفياً لنقد الهيمنة والتحكم^(٢). وكانت لغة السياسة، بوصفها مظهراً من مظاهر الهيمنة والتحكم وأداة له في الوقت ذاته، موضوعاً لممارستهم النقدية.

لقد أدرك ماركيوز أن بناء مجتمع حر جديد يرتبط ببناء لغة سياسية جديدة ووجدان جديد. وكانت صيحته «على هؤلاء (يقصد من يسعون لتحقيق مجتمع حر) أن يتكلموا لغة جديدة» تعبيراً عن إدراكه لخطورة الدور الذي يمكن أن تقوم به لغة السياسة في المجتمعات القائمة. فلغة السياسة هي «درع النظام القائم»، وهي أداة القمع التي يستخدمها في ترويض مواطنيه. هذه اللغة القمعية/الكاذبة يسميها ماركيوز، بما يليق بها أن تسمى به: إنها لغة «داعرة»، «خرقاء». ينقل ماركيوز، في هذه التسميات، دلالات الانحلال الجنسي والتخبط السلوكي إلى لغة السياسة؛ فليس المهر بيع الجسد بل إفقاد الكلمات معانيها الحقيقية، وتبرير حرب يباد فيها شعب من الأبرياء.

تجليات الفكر الأحادي البعد. وأُفرد الخاتمة الموجزة لعرض تصور للمستقبل وإمكانيات التغيير.

كانت لغة السياسة قاسما مشتركا في موضوعات الكتاب قاطبة، وذات حضور مزدوج؛ فهي دوما سبب ونتيجة. سبب لتخدر المجتمع ونتيجة له. فالمجتمع أحادي البعد والفكر أحادي البعد يُنتجان لغة أحادية البعد ويُنتجان عنها في الوقت ذاته. ولم يكن غريبا، من ثم، أن يفرد ماركيز أكبر فصول الكتاب لنقدها وتحليلها. افتتح ماركيز هذا الفصل باقتباس مأخوذ عن رولان بارت، هو «إن كل كتابة سياسية في الوضع الراهن للتاريخ لا يمكن إلا أن تؤكد وتعزز عالما بوليسيا» (ماركيز ١٩٦٤، ١٢١). ويمكن القول إن نقد ماركيز للغة السياسة كان حاشية تفصيلية على عبارة بارت. لقد عني ماركيز ببيان الميول المميزة للفكر أحادي البعد كما تتجلى في لغته، وبعض الخصائص التركيبية للغة المجتمع أحادي البعد، ووظائفها وكيفية عملها، والمقاربات الفلسفية المعنية بتحليلها، وطرق مقاومتها. واستمد، غالبا، أمثله من المجتمع الأكثر «رأسمالية» وهو الولايات المتحدة الأمريكية، والمجتمع الأكثر «اشتراكية» وهو الاتحاد السوفييتي^(٤). وجدير بالذكر أن ماركيز، لم يفاضل بين المجتمعين الأمريكي والسوفييتي؛ فكلاهما، من وجهة نظره، مجتمع أحادي البعد، وكلاهما يتبنى لغة أحادية البعد. وهو ما يبرر تجاوز الأمثلة التي تنتمي إلى المجتمعين في سياق التحليل، واشتراكهما في النتائج.

يؤكد ماركيز أهمية اللغة في المجتمع المعاصر؛ «فالكلمة هي التي تأمر وتنظم، وهي التي تحث الناس على العمل والشراء والقبول» (نفسه ١٢٣). لقد استطاع رجال السياسة وصناع الرأي العام، الذين يدركون هذه الأهمية، بمساعدة مؤسسات البحث، أن يتكلموا ويفرضوا لغة خاصة. لغة طقسية تعسفية تقوم بتضليل متلقيها، وتشبه في عملها السحر والتنويم المغناطيسي.

وقد ذكر ماركيز في ثنايا كتاب «الإنسان ذو البعد الواحد» بعض ما يمكن أن نطلق عليه الخصائص التركيبية والتداولية والطباعية للغة أحادية البعد.

كان ماركيز أحد أبرز أعضاء هذه المدرسة، وربما كان من أكثرهم اهتماما باللغة بعامه، ولغة السياسة خاصة. اننا ندرك أن أفكار ماركيز تمثله وحده، لكنها في الوقت ذاته تعطي صورة، قد تكون دقيقة، لمقاربة مدرسة فرانكفورت بوجه خاص، والمقاربة الماركسية بوجه عام، للغة السياسة. وكلا المقاربتين كان - ولا يزال - ذا تأثير كبير في معظم توجهات نقد لغة السياسة. وتعد كتابات ماركيز في هذا السياق من أهم ما كتبه الرعيل الأول من مؤسسي النظرية النقدية، فيما يتعلق بنقد لغة السياسة.

سوف نركز في تناولنا لنقد لغة السياسة عند ماركيز على مؤلفين اثنين من مؤلفاته؛ هما: الإنسان ذو البعد الواحد، و«مقال في التحرر»^(٣). يتضمن المؤلفان أهم أفكار ماركيز عن لغة السياسة. وفي حين يركز الأول على خصائص اللغة المسيطرة والآثار التي تحدثها، يركز الثاني على إمكانات مقاومة اللغة السائدة وبدائلها الممكنة.

في نقد اللغة أحادية البعد

في عام ١٩٦٤ أصدر ماركيز مؤلفه نائع الصيت «الإنسان ذو البعد الواحد». حاول ماركيز في هذا الكتاب أن يجيب عن تساؤلين؛ الأول: لماذا لم تندلع الثورة في الدول الصناعية المتقدمة، التي اعتبرت المهاد النموذجي للثورة في أدبيات ماركسية متعددة؟ والثاني: لماذا أصبحت الثورة «الطبيعية» مستبعدة بل مستحيلة في هذه الدول إبان تأليفه كتابه؟ والسؤالان يخصان ماضي «الثورة» في هذه المجتمعات وحاضرها ومستقبلها.

في سياق إجابته عن هذين السؤالين قدم ماركيز تصوره لطبيعة المجتمعات الصناعية المتقدمة (الرأسمالية والاشتراكية)، وطبيعة الإنسان الذي يعيش فيها. وكان مركز هذه التصورات فكرة «البعد الواحد»، والتي اعتبر أنها سمة لمجتمع وإنسان عصره، وأنها العلة وراء إجهاض الثورات الممكنة. ففي ظل مجتمع أحادي البعد وإنسان أحادي البعد ليس ثمة سبيل لتطور نقد حقيقي للمجتمع، ومن ثم لا سبيل لتغييره. قسم ماركيز كتابه إلى مفتتح وقسمين وخاتمة. ناقش في مفتتحه ما أطلق عليه ظاهرة «تخدر النقد». وعالج في القسم الأول خصائص المجتمع أحادي البعد، وفي القسم الثاني

يؤكد ماركيز أهمية اللغة في المجتمع المعاصر؛ «فالكلمة هي التي تأمر وتنظم، وهي التي تحث الناس على العمل والشراء والقبول»، لقد استطاع رجال السياسة وصناع الرأي العام، الذين

يدركون هذه الأهمية، بمساعدة مؤسسات البحث، أن يتكلموا ويفرضوا لغة خاصة. لغة طقسية تعسفية تقوم بتضليل متلقيها، وتشبه في عملها السحر والتنويم المغناطيسي.

التي ترجع إلى افتراض علاقة شخصية بين المتكلم والمخاطب، وإعادة تأسيس علاقة التبعية على عكس ما قد يوجد في الواقع؛ حيث يحل «أنا لكم» محل «أنتم لي». إلخ. ويرى ماركيز أنه لا يهم كثيراً ما إذا كان الأفراد المستهدفون يصدقون هذه اللغة أم لا؛ «لأن فاعليتها تكمن في أنها تشجع وتسهل توحيد الأفراد ذاتياً مع الوظائف التي يؤدونها هم والآخرين في المجتمع القائم» (نفسه ١٢٩).

خامساً: انها لغة تفرض توحداً استبدادياً بين هوية الشخص الإنساني ووظيفته. ويتحقق هذا التوحيد بواسطة هيمنة الاسم على الجملة من ناحية، وبواسطة أشكال متعددة من اختصار بناء الجملة من ناحية أخرى. ويهدف هذا التوحيد إلى خلق بناء ومفردات أساسية يصبح من الصعب معها التعبير عن الاختلاف والتمايز والانفصال. وهو ما يتحقق بدوره بواسطة فرض صور ثابتة، تحول دون تطور المفاهيم والتعبير عنها. ويمثل ماركيز لهذه اللغة ببعض العبارات المأخوذة من مجلة (التايمز الأسبوعية)؛ مثل: (فرجينيا بيرد)، أو (مصر ناصر)^(٥). ويرى أن طريقة استعمال المجلة للمضاف إليه تجعل الأفراد يبدو وكأنهم مجرد زوائد، مجرد صفات لمحلهم أو مهنتهم أو رب عملهم أو مشروعهم» (نفسه ١٢٩).

سادساً: انها لغة تشجع فيها علامات الوصل الطباعية. وتقوم هذه العلامات بتحقيق وظائف مهمة؛ فهي، أولاً، تدمج العناصر المكونة للجملة في إطار جديد لا يوجد فيه تمييز بين هذه العناصر. ويوضح ماركيز هذه الوظيفة بالمثال الآتي: «لقد كرس رجل جورجيا القوي، الحاكم - ذو - الحاجبين - الواطئين وقته في الأسبوع الماضي لواحد من تلك الاجتماعات السياسية». ويرى أن استخدام علامات الوصل الطباعية في هذا المثال تستهدف تذيب الحاكم ومنصبه وسماته الجسدية ووظائفه السياسية في بنية ثابتة متحجرة غير قابلة للانقسام، تفرض نفسها، ببراءتها وطابعها المباشر، على القارئ. ويلاحظ ماركيز أن هذه الظاهرة تشجع في الجمل التي تربط بين السياسة والتقنية والقوات المسلحة؛ مثل «أبو القنبلة - هـ»، و«فون براون - مخترع الصواريخ - العريض - المنكبين». ويرى أن مثل هذه الجمل ذات نتيجة

تتمثل هذه الخصائص في: أولاً: انها لغة مبنية على التوفيق بين المتعارضات. وتحقق ذلك عن طريق إدراج المتعارضات في بنية متينة مألوفة. ويمثل ماركيز لهذه الخاصية بأسماء من قبيل «القنبلة النظيفة»، «الإشعاعات الذرية غير المؤذية»، وبتعبيرات من قبيل «طاقة تدميرية مريحة». ويصف مثل هذه التراكيب بأنها ذات طابع سوريالي محض، تحتفي بالتناقض الذي كان ألد أعداء المنطق، وأصبح، في سياق هذه اللغة، هو المنطق ذاته. هذا التناقض يقرب لغة المجتمع أحادي البعد من لغة المجتمع القمعي الاستبدادي الذي يقدمه أروويل بشعاراته المبنية على التعارض: «السلام هو الحرب»، «المعرفة هي الجهل». إلخ. تلك اللغة التي يعاد إنتاجها في المجتمعات المعاصرة، عندما تسمى الحكومة المستبدية حكومة ديمقراطية»، وعندما تسمى الانتخابات المزورة انتخابات «حرة» (نفسه ص ١٢٦).

ثانياً: انها لغة مبنية على التكرار، إلى الحد الذي يصف فيه ماركيز الكلام في عالم الإنشاء المغلق - عالم الاتصال الجماهيري - بأنه ليس إلا «تنقيلاً للمترادفات والألفاظ المتكررة» (نفسه ١٢٥). هذا التكرار اللامتناهي يحول الجملة إلى صيغة من صيغ التنويم المغناطيسي، تقوم باستبعاد كل ما يخالفها أو يعارضها أو يطرح نفسه بديلاً لها. وأخيراً يؤدي التكرار إلى إضفاء ألفة كاذبة على الجملة نتيجة تكرارها. وعلى الرغم من إقرار ماركيز بأن التكرار سمة لغة الإعلان فإنه يبرهن على أن لغة السياسيين تميل إلى الاتحاد بلغة الإعلان.

ثالثاً: انها لغة أمرية مقلدة «لا تبرهن على شيء ولا تفسر شيئاً، وإنما هي تبلغ القرار أو الحكم أو الأمر. وتقرر الخطأ والصواب بصورة لا تقبل نقاشاً» (نفسه ١٣٩). هذه اللغة الأمرية التي تعلن أكثر مما تبرهن، تسلب بدورها إمكانيات الكشف عن التناقض؛ فليس ثمة ما يمكن الاختلاف عليه! كما أنها تفرض علاقة سلطوية محددة يدشنها فعل الأمر الذي يحدد العلاقة بين المتكلم والمخاطب بوصفها علاقة بين أمر ومأمور.

رابعاً: انها لغة خطابية، قائمة على التوجه المباشر من المتكلم إلى المخاطب. لغة «أنا منكم ولكم وبكم». إلخ. تلك اللغة التي تضيف طابعاً من الألفة الزائفة

تسمى الحكومات المستبدة «حكومات ديمقراطية»، والانتخابات المزورة «انتخابات نزيهة»... إلخ، (نفسه ١٢٦). هذه الظاهرة كان قد رصدها أورويل وجعلها سمة المجتمعات الاستبدادية الحديثة، حتى أصبحت هذه اللغة تعرف به. وأصبح مصطلح «اللغة الأورويلية» إشارة إليها. لكن ماركيز يرفض أن ينسب هذه الظاهرة إلى أورويل؛ فهي، من وجهة نظره، تشيع في الخطاب اللغوي السياسي الدارج قبل أورويل بحقبة طويلة. ولا تكمن الجدة إذن، وفق ماركيز، في إطلاق التسميات المناقضة لحقيقة المسمى، بل في طبيعة استجابة المتلقين لهذه التسميات. فهو يرى أن الرأي العام والخاص بات يقبل بصورة عامة هذه الأكاذيب. وهو ما يراه علامة على انتصار المجتمع على التناقضات التي ينطوي عليها.

تكشف الخصائص السابقة، التي تميز اللغة أحادية البعد، عما يسميه ماركيز «ميول الفكر الأحادي».

ويذكر ماركيز أن هذا الفكر يميل إلى:

- ١- المفهوم المقلص إلى صور ثابتة
- ٢- الصيغ المنومة مغناطيسيا، التي تبرر نفسها بنفسها، وتمنع تطور المفهوم
- ٣- الإنشاء المحض ضد التناقض
- ٤- الشيء (أو الشخص) المتحد في الهوية مع وظيفته (نفسه ١٣٤).

هذه الميول الأربعة تؤدي إلى إجهاض البعد النقدي للغة. فهي تنتج لغة تحول دون تطور المفاهيم، وتؤدي إلى الاستسلام للوقائع المباشرة. ومن ثم تصبح عاجزة عن الكشف عن العوامل الكامنة وراء هذه الوقائع أو مضمونها التاريخي. إن الفكر أحادي البعد، وفقا لماركيز، يميل إلى إنتاج لغة وظيفية، لغة مختصرة، موحدة، مهمتها التنسيق والربط. لغة متناغمة مناسقة تناهض النقد ولا تقبل المراجعة.

في سياق تقريبه للتأثيرات التي تحدثها اللغة أحادية البعد في الإنسان أحادي البعد يعقد ماركيز علاقات مشابهة بين تأثير هذه اللغة وتأثير ظواهر أخرى؛ اجتماعية وفيزيائية، مثل التنويم المغناطيسي والسحر والطقوس. وتشارك هذه الظواهر الثلاث في أن الفاعل (المنوم، الساحر، واضع الطقوس) يمارس سيطرة كاملة على المفعول

سحرية ومنومة مغناطيسيا؛ فهي تعرض صورا تستدعي وحدة لا تقاوم، وتقيم انسجاما بين متناقضات لا يمكن التوفيق بينها في الواقع. حيث يُنجب «الأب» المحبوب والمهاب (الأب المنجب)، القنبلة الهيدروجينية لإبادة الحياة. وهكذا تنجز هذه التقنية وظيفتها الثانية؛ أعني التوفيق بين المتناقضات.

سابعاً: انها لغة تحتفي بالاختصارات. وعلى الرغم من إدراك ماركيز أن هذه الاختصارات قد تكون مبررة في كثير من الأحيان نتيجة طول المصطلح؛ فإنه يرى في بعض هذه الاختصارات «حيل من حيل العقل». ويرجع ذلك إلى أن الحروف الاختصارية تخفي البعد الدلالي الكامن في المفردات المكونة للمصطلح. ومن ثم تلغي إمكانية تحقق تلقي نقدي له. فحين يذكر «NATO» بالحروف فحسب، يغيب الاسم الأصلي وهو «منظمة معاهدة شمال الأطلسي»، والذي يؤدي ذكره إلى طرح أسئلة من قبيل: إذا كانت هذه المعاهدة تخص الدول الواقعة شمال الأطلسي، فلماذا التحقت تركيا واليونان (وبعد ذلك دول شرق أوروبا) بها؟ يقوم الاختصار بحجب الصفات المكونة للمصطلح، التي تكمن في الدلالات المعجمية للمفردات المكونة له، وخصائصها الصوتية، والعلاقات النحوية والصرفية. ويقوم مستخدم اللغة في هذه الحالة باستحضار الاسم دون أية دلالات أو إيحاءات مصاحبة. «وهكذا يصبح المعنى ثابتاً، مزوراً، ثقيل الوطاء، ويفقد كل قيمة عرفانية بمجرد تحوله إلى رمز صوتي مكرر» نفسه ١٣٢. وقد أدرك واضعو الأسماء القوة التي تمتلكها الاختصارات، والوظائف التي يمكن أن تحققها، وهو ما يظهر في شيوعها الكبير في قطاعات مثل الأسلحة (النووية خاصة) والمعاهدات والقرارات السياسية^(٦).

ثامناً: انها لغة حافلة بالكليشيات. ولا يرجع ذلك إلى كثرة استخدام الكليشيات، بل إلى تحول كلمات اللغة ذاتها إلى كليشيات؛ نتيجة التوحيد بين الأشياء ووظيفتها، وتقييد نمو المفاهيم.

تاسعاً: أنها لغة لا تسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية، بل ربما تسميها بنقيضها. ويمثل ماركيز لذلك بحالات كانت شائعة في عصره، ولا تزال. من قبيل أن الحزب السياسي الذي يعمل على تطوير الرأسمالية والدفاع عنها يسمى نفسه «الحزب الاشتراكي»، وأن

به (النوم، المسحور، المشارك في الطقوس). كما أن الأدوات التي يستخدمها الفاعل تكون مشبعة -غالبا- بخصائص الفعل. فأدوات الساحر» سحرية»، وأدوات النوم «منومة»، وأدوات الطقس «طقسية». وأخيرا فإن النوم والمسحور والمتأثر بالطقوس لا يدرك أنه واقع تحت تأثير قوة أكبر منه، بل يكون على يقين من أنه يتحرك بمطلق إرادته، ويقاوم مقاومة شرسة محاولات تحريره من سطوة هذه القوة العليا. أي أن الواقع تحت سيطرة هذه القوى يبرر لنفسه سلوكياته وأفعاله، ويخلق لها إطارا ذاتيا، كما لو أنها تتحرك بمعزل عن أية قوة أخرى^(٧).

إن ربط التأثير الذي تحدثه اللغة أحادية البعد بالتأثير الذي تحدثه هذه الظواهر الثلاث يتضمن بشكل أساسي إعادة ترسيم العلاقة بين المتكلم (منتج اللغة) والمخاطب (مستهلكها)، خاصة على المستوى العام. كما أنه يستهدف وضع مفهوم للغة لا تكون فيه اللغة مجرد أداة لوصف العالم بل لتثبيته أو تغييره أو تزييفه. ولا تكون مجرد أداة للتواصل بين الأفراد الذين يستخدمونها، بل أداة تمكن بعض «ممتلكيها» من السيطرة على الآخرين. بالإضافة إلى أنه يستبعد التصور الشائع للغة بوصفها وسيطا شفافا، لتصبح وسيطا مبهما وغامضا، غموض وإبهام الطقوس والسحر. وأخيرا، فإنه ينزع عن اللغة صفة «الطبيعية»، ويوجه الانتباه إلى عمليات الضبط والتخطيط المسبق والمحكم الذي تخضع له.

إضافة إلى ربط الأثر النهائي للغة على الإنسان بالأثر الذي يحدثه السحر والطقوس والتنويم المغناطيسي، ربط ماركيز بين خصائص محددة للغة وإحدى هذه الظواهر. فقد ذهب إلى أن استعمال المسند التحليلي واستخدام العلامات الطباعية الفاصلة (-)، والجمل المبنية على التعارض بين المكونات تحول الكلام إلى جمل وصيغ منومة مغناطيسيا. وربط كذلك بين بعض الممارسات اللغوية والتنويم المغناطيسي؛ مثل الإعلانات وعبارات السياسيين؛ بحيث يصبح التعرض لهذه الممارسات اللغوية شبيها، في آثاره، بالتعرض لعملية تنويم مغناطيسي.

يؤدي ربط التأثيرات التي تحدثها اللغة

بالتأثيرات التي تحدثها الطقوس والسحر والتنويم المغناطيسي إلى إضعاف التفاؤل بشأن إمكانية مقاومتها، من ناحية، ويفرض إجراءات معينة لتفعيل هذه المقاومة من ناحية أخرى. فالخاضع للغة أحادية البعد يحتاج أن يعي أنه مضلل، وأن من يقوم بتضليله حريص على التخفي من جهة، وإنكار عملية التضليل ذاتها، من جهة أخرى. وليس كل أفراد المجتمع قادرين على تحقيق هذا الوعي؛ أي قادرين على اكتشاف أنهم خاضعون لسلطة خفية تتحكم في أفعالهم، بل، ربما، يقاومون مقاومة شديدة من يحاول الكشف عن واقع خضوعهم، قد تصل إلى حد العدائية. ولأن المجتمعات الصناعية قد أصبحت غير قادرة، وربما غير راغبة، في اكتساب هذا الوعي فإن الثورة المحتملة تصبح مستبعدة، وربما مستحيلة. والأفراد المؤهلون، إلى حد ما -وفقا لماركيوز- لتحقيق هذا الوعي هم من لم يندمجوا بعد في المجتمعات أحادية البعد؛ أي الجماعات التي لم تخضع لعملية التضليل الكلية، أو بشكل كامل، مثل جماعات الهيبز، والسورياليين، والمناضلين السود. وهي الجماعات نفسها التي يرى فيها ماركيز الأمل الوحيد في التغيير.

لم يتوقف ماركيز عند سبر العلاقات الجدلية بين المجتمعات الصناعية؛ إنسانها وفكرها ولغتها، أو -باستخدام مصطلحاته- بين المجتمعات أحادية البعد والإنسان أحادي البعد ولغته وفكره أحادي البعد، بل حاول سبر العلاقة بين التحليل اللغوي الذي تقدمه بعض فلسفات اللغة وهذه العناصر الأربعة. يخصص ماركيز (١٩٦٤) الفصل السابع من كتابه لنقد التحليل اللغوي الذي روجت له الفلسفة التحليلية. ويركز نقده على مبادئ هذه المدرسة في التحليل اللغوي، متخذا من أفكار فيلسوف اللغة الألماني لودفيغ فيتيغنشتين (١٨٨٩-١٩٥١)، خاصة تلك الواردة في مؤلفه الأخير، «مباحث فلسفية»، ممثلا لهذه المبادئ. ينتقد ماركيز دعوة فلاسفة اللغة التحليليين إلى استخدام لغة رجل الشارع، أو اللغة الدارجة بوصفها لغة التحليل اللغوي. إذ يؤدي ذلك إلى تقليص اللغة وتحويل لغة الفلسفة إلى لغة سلوكية بدلا من أن تكون لغة كاشفة. كما ينتقد اقتصار الفلسفة اللغوية التحليلية على

ينتقد ماركيز
دعوة فلاسفة
اللغة التحليليين
إلى استخدام
لغة رجل الشارع،
أو اللغة الدارجة
بوصفها لغة
التحليل اللغوي.
إذ يؤدي ذلك إلى
تقليص اللغة
وتحويل لغة
الفلسفة إلى لغة
سلوكية بدلا
من أن تكون لغة
كاشفة

والمفردات ليست إلا أفعالا أخلاقية وسياسية» (نفسه ٢١٤-٢١٥). إن هذا التوجه نحو السياسي والاجتماعي عند ماركيز ليس سمة التحليل اللغوي المبتغى فحسب، بل سمة الفلسفة الحقبة؛ أي الفلسفة العلاجية. ولكي تقوم الفلسفة بمهمتها العلاجية في «عالم كلي استبدادي» يجب أن تكون هذه المهمة سياسية. وتمثل دعوة ماركيز إلى فلسفة لغة علاجية، وإلى تحليل لغوي يربط اللغوي بالسياسي والاجتماعي لبنين من مشروع متناثر في كتاباته يستهدف مقاومة اللغة أحادية البعد.

يمكن النظر إلى كتاب «الإنسان ذو البعد الواحد» على أنه طرح متشائم لوضعية الإنسان في العالم المعاصر. وذلك استنادا إلى معطيات فعلية، من قبيل شيوع نبرة اليأس من إمكانية قيام الثورة في المجتمعات الصناعية، والتركيز على مظاهر سيطرة المؤسسات التي تخدم مصالح القلة على عقول الشعوب ونفوسها. وأخيرا، قصر احتمالات التغيير على تحرك جماعات المهمشين من المنبوذين اجتماعيا والعاطلين عن العمل والأقليات العرقية. إلخ. وهي جماعات لا تشي قدراتها الفعلية بإمكانية التغيير. لكن ماركيز، فيما يتعلق باللغة، ربما كان أكثر تفاؤلا. وقد يرجع ذلك إلى أنه وزع المهام التي يمكن من خلالها تحرير اللغة من أسر البعد الواحد. لقد دعا، كما سبق أن أوضحنا، إلى فلسفة لغة علاجية، وإلى تحليل لغوي كاشف. كما دعا في سياقات أخرى إلى مقاومة هذه اللغة عن طريق الاحتفاء باللغة العاربية، وربما الوقحة، التي تعيد تسمية الأشياء بأسمائها (نفسه ١٢٢-١٢٣). وهي مهام يمكن أن يقوم بها الفيلسوف واللغوي والصحفي ورجل الشارع. إلخ. لكن هذه المقاومة ستكون جزئية، والحل الذي تقدمه سيكون جزئيا بدوره. أما الحل الشامل فسوف يتحقق فحسب عن طريق إكساب الأفراد وعيا حقيقيا بالعالم، ف «لن يصبح تقرير المصير الذاتي فعليا وواقعا إلا إذا لم تعد هناك جماهير، بل مجرد أفراد متحررين من كل دعاية، ومن كل تكييف مذهبي، ومن كل تحكم وتلاعب، وقادرين على معرفة الوقائع وفهمها وعلى تقرير الطول الممكنة» نفسه ٢٦٢. وهكذا يرتبط ظهور هؤلاء الأفراد بنشأة ضمير نقدي، يمكنهم من إدراك «حقيقة» هذا العالم وتغييره. هذا الضمير

مجرد وصف اللغة، متهكما على تصريح فتغنشتين المشهور: إن الفلسفة «تترك كل شيء كما هو». ويراها دليلا وبرهانا على النزعة السادية - المازوكية الأكاديمية، وعلى هوان المثقفين ونكرانهم لذواتهم من ناحية، والانصياع للعالم الذي ينطق بهذه اللغة من ناحية ثانية. ويكشف عن أن هذه الفلسفة تحتفي بالكلمة وترفض ما تكشفه هذه الكلمة عن المجتمع الذي ينطق بها؛ مؤدية بذلك إلى تعمية الاجتماعي الذي يكمن في اللغوي. كما ينتقد الصورة الزائفة التي تقدمها الفلسفة التحليلية عن اللغة، والتي يلخصها تأكيد فتغنشتين أن «كل عبارة في لغتنا منظمة على أحسن ما يكون في حد ذاتها». بينما يرى ماركيز أن الحقيقة هي أن «كل عبارة مختلة النظام أيضا، اختلال العالم الذي تعبر عنه اللغة» (نفسه ٢٠٠). وأخيرا ينتقد تجاهل هذا النمط من التحليل اللغوي لما هو مغاير وتناحري، وما لا يمكن عقله بمصطلحات الاستعمال الدارج. وهو بذلك يتجاهل مجالا ثريا للمعرفة؛ لمجرد وقوعه وراء المنطق الصوري والحس العام (نفسه ٢٠٤).

ينطلق نقد ماركيز للفلسفة التحليلية من تصور يرى أن وظيفة الفلسفة ليست الحفاظ على الواقع الكائن وتركه كما هو، بل تفجيره وتدميره تدميرا. وهو ما يتطلب تجاوز وصف الوقائع المعطاة إلى التفاعل معها وكشف القناع عما تخفيه. فلسفة لا تتصالح مع المجتمع القمعي السلطوي بل تقاومه. ومن ثم يمكن أن نتفهم النبرة التهكمية اللاذعة التي تسري في تفنيدات ماركيز لمبادئ الفلسفة التحليلية، التي تقع على طرف النقيض من تصوراته عن الفلسفة، التي يمارسها بالفعل. كما تتيح لنا كذلك تفهم نبرة الإعجاب التي تسري في استعراض ماركيز لنماذج مغايرة من التحليل اللغوي، استطاع المحللون فيها، بواسطة استخدام لغة متميزة عن اللغة التي يحللونها، أن يستكشفوا «عالم الإنشاء القائم الكلي الاستبدادي الذي يتم فيه دمج مختلف أبعاد اللغة وتمثلها». ويمثل لهذه التحليلات بتحليلات كارل كراوس الذي «أثبت أن الدراسة الداخلية للغة والكتابة والترقيم والأخطاء المطبعية يمكن أن تكشف عن نظام أخلاقي وسياسي كامل. وأن التراكم والقواعد

ركز ماركيز في
نقده للغة السياسية
على المجتمعات
الصناعية الكبرى؛
خاصة الولايات
المتحدة الأمريكية
والاتحاد السوفيتي
السابق. وعلى
الرغم من تشابه
بعض خصائص لغة
السياسة المستخدمة
في هذه المجتمعات
مع لغة السياسة
المستخدمة في
مجتمعات أخرى،
فإن لكل مجتمع
لغة سياسية
ذات تأثير خاص
واستجابات خاصة.
ولا يرجع ذلك
إلى الخصوصية
الثقافية
والاجتماعية
والاقتصادية
للمجتمعات فحسب،
بل إلى خصوصية
اللغة التي
تستخدمها كذلك

أعداء الوطن وأصدقاءه، والخير والشر، وكيف يسلك بإزاء كل شيء. ولكن هذه اللغة لا تخدم إلا مصالح من يمتلكها. وهكذا يعرف السياسيون المستفيديون من الحرب، مثلا، الفلاح الفيتنامي، الذي يدافع عن بلاده، بأنه «بشر أدنى، إرهابي قاسي القلب، وناكر للجميل». أما الطيار الأمريكي الذي يلقي النايلم على القرى العزلاء فيوصف بأنه «بطل التحرير، المحب للإنسانية»^(٩). هذه اللغة لا يصلح معها إلا التدمير. وأولى خطوات تدمير «الكون اللغوي القائم» هي إحداث قطيعة شاملة معه، ونفيه من واقع الاستخدام؛ «فالقطيعة مع مستمر السيطرة، ينبغي أن تجر إلى قطيعة مع مفردات لغة السيطرة» نفسه ٦٢. هذه القطيعة والنفي يتحققان عن طريق إنشاء لغة جديدة. وهو ما يتحقق بدوره، جزئيا، بواسطة «فن معالجة الكلمات»؛ الذي يستهدف «تخليص الكلمات والمفاهيم من المعاني اللقيطة التي حملها إياها النظام القائم» نفسه ٢٥. لقد شغلت ظاهرة فقدان الكلمات معانيها الحقيقية ماركيز. ورأي فيها قمعا للبشر وتخريبا للغة. وقد نقل بإعجاب شديد عبارة دافيد س. برودير، التي يرصد فيها ما أسماه «التخريب المنهجي لمعنى الكلمات وماهيتها». وهو تخريب يلقي السياسيون بذوره، وترعاها وسائل الإعلام. وبحسب برودير فإنه «عندما يتعود الناس سماع الكلام عن معارك عنيفة في «المنطقة منزوعة السلاح»، أو عن جرحى في حالة الخطر «عقب مظاهرة غير عنيفة»، يصبح المرء غير بعيد عن فقدان سلامة حسه» نفسه ١٢٢. إن إصلاح اللغة يحتاج إلى أكثر من مفرداتها جديدة؛ إنه يحتاج إلى وعي وحساسية جديدين، يدعمان هذه المفردات وتدعمهما.

يتخلق الوعي الجديد والحساسية الجديدة واللغة الجديدة في إطار التمرد والرفض. وحين يدمر «الكون اللغوي القائم» سوف يتوقف «المصنع الكلامي» للمجتمعات الصناعية المعاصرة عن إنتاج اللغة «الداعرة». لقد رصد ماركيز حالات واقعية من تهديم الكون اللغوي القائم، قامت بها جماعات الرفض في عصره (الأقليات، الهيبين، الطلاب) التي كانت تمثل، بالنسبة له، الأمل في التحرر. هذه الجماعات قامت بما يسميه ماركيز «انقلاب منهجي في المعاني»، أو «انتفاضة لغوية منهجية». وقد تحقق هذا

النقدي يتحقق بواسطة المعرفة، ويتكلم لغة المعرفة التي «تفجر عالم الإنشاء المغلق وبنيته المتحجرة» (نفسه ١٣٧).

«نحو التحرر»: الرفض الكبير وتهديم الكون اللغوي القائم

بعد أربع سنوات من صدور «الإنسان ذو البعد الواحد»، ذي الطابع التشاؤمي والمكسر لنفي إمكانية الثورة، كان طلاب فرنسا، وأوروبا عامة، يفرضون واقعا جديدا؛ أصبحت فيه الثورة ليست ممكنة فحسب، بل متحققة أيضا. لقد أثرت ثورة الطلاب في مايو ١٩٦٨ في ماركيز كثيرا؛ ليس لأنها احتفت به ووضعت اسمه فوق لافتاتها^(٨)، بل لأنها، وهي تتبنى بعض أفكاره، كانت تنزع عنه، مؤقتا، تشاؤميته. قبيل ثورة الطلاب كان ماركيز على وشك أن ينتهي من تأليف كتاب صغير الحجم، بعنوان «مقال في التحرر». ويوشك الكتاب أن يكون مانيفستو لثورة محتملة أو لـ «الرفض الكبير». وجاءت الثورة. وقرر ماركيز، الذي لم يكن قد نشر كتابه، أن ينشره كما هو، مكتفيا ببعض الهوامش التي تخص «الواقع الجديد». وكان الكتاب وهامشه معنيان، في مواضع كثيرة، بما يمكن أن نطلق عليه «تثوير اللغة».

لقد أدرك ماركيز أن بناء مجتمع حر جديد يرتبط ببناء لغة سياسية جديدة ووجدان جديد. وكانت صيحته «على هؤلاء (يقصد من يسعون لتحقيق مجتمع حر) أن يتكلموا لغة جديدة» تعبيراً عن إدراكه لخطورة الدور الذي يمكن أن تقوم به لغة السياسة في المجتمعات القائمة. فلغة السياسة هي «درع النظام القائم» (ماركيز ١٩٦٩: ١٢١)، وهي أداة القمع التي يستخدمها في ترويض مواطنيه. هذه اللغة القمعية/الكاذبة يسميها ماركيز، بما يليق بها أن تسمى به؛ إنها لغة «داعرة»، «عاهرة»، «خرقاء». ينقل ماركيز، في هذه التسميات، دلالات الانحلال الجنسي والتخبط السلوكي إلى لغة السياسة؛ فليست الداعرة والعهر بيع الجسد بل إفقاد الكلمات معانيها الحقيقية، وتبرير حرب يباد فيها شعب من الأبرياء (إشارة إلى حرب فيتنام).

إن لغة السياسة «الداعرة»، المسيطرة في الآن ذاته، لا تقبل الإصلاح. فهي تجتذب في فلكها كل ما يربط الإنسان بعالمه. تثبت له وضعيته، وتحدد له

٥- إطلاق تسميات جديدة، مبنية على المجاز في معظمها، لتشير إلى إدراك خاص لماهية جماعة ما، أو شخص ما، أو شيء ما. إلخ. ويمثل ماركيزون لذلك بعض التسميات الشائعة في العامية الأمريكية، مثل تسمية المثقفين «رأس البيضة»، وتسمية المحلل النفسي «مضيق الدماغ»، وتسمية التليفزيون «أنبوب الفرج». إلخ. ويرى أن هذه اللغة الشعبية «تصدى بسخرية مثيرة وحادقة للكلام الرسمي ونصف الرسمي» (ماركيوز ١٩٦٤: ١٢٣). وأن في شيوخ هذه التسميات وغناها وإيحائها ما يدل على أن رجل الشارع يؤكد إنسانيته في لغته الخاصة بوضعه إياها على قطب معارض للسلطات القائمة، وأن إعادة تسمية الأشياء بأسمائها يمثل انفكاكا من السيطرة وإعلانا للتمرد والرفض.

٦- توليد استجابات ساخرة مثل الضحك والأهاجي والتهريج. وعلى الرغم من أن ماركيزون يصف هذه الأشكال من الاحتجاج بأنها سلبية وفوضوية وربما لا سياسية، فإنه يرى أنها كثيرا ما تقض مضاجع النظام القائم. ويرى أن عصره يشهد نموا لظاهرة احتقار قيم السياسيين التي يجهرون باعتناقها، ويجردونها في الوقت ذاته من معانيها. ويرتبط هذا باحتقار ما يسميه «روح الجد»، التي تطبع خطب الساسة المحترفين أو نصف المحترفين، وأفعالهم بطابعها. فقد «أخذ المتمردين في بعث الضحك اليأس، والتحدي الماجن الذي عرف به المهرجون، وذلك لنزع الأقنعة عن تصرفات هذه الجماعة الجادة التي بيدها الحل والربط في كل شيء» (ماركيوز ١٩٦٩: ١٠٧).

ربما تكون هذه الاستجابات التي يسميها ماركيزون بـ «السلبية»، من أكثر الاستجابات فعالية إزاء خطاب السياسيين. فهذه الاستجابات «الهائنة» جادة بأقصى ما يكون، خاصة حين تواجه نصوصا أو كلاما كاذبا. فاللغة التي تناقض واقعها لا تحتمل كل هذا «الجد» إزاءها. ولا بد من بعض الاستهزاء الغاضب، ونحن نلتقها. إنها تقول لنا: أنا كاذبة، وتخرج لنا لسانها. تقول لنا: أعلم أنكم تكتشفونني، لكنني سوف أظل أفعل وأسيطر: فأنا الأقوى. وربما يكون الفعل الوحيد القادر على إرباكها هو أن نضحك إزاءها

الانقلاب أو الانتفاضة بواسطة عدد من العمليات المنفصلة؛ هي:

١- قيام بعض هذه الجماعات باستخدام مفردات بريئة، شائعة الاستخدام في الحياة اليومية، وإطلاقها على أفعال يصفها النظام القائم بـ «المحرمات». مثل استخدام كلمة «رحلة» (trip) للإشارة إلى ارتياد تجمعات الهيبين، واستخدام كلمة «عشب» (grass) للإشارة إلى الماريجوانا. وتستهدف إعادة التسمية، في هذه الحالة، التخلص من الدلالات السلبية التي يلصقها النظام القائم بسلوكيات الجماعة وأشياءهم. وإضفاء طابع الألفة والعادية عليها.

٢- إعادة تسمية الأشخاص بما يجدر بهم أن يسموا به في الواقع. وذلك مثل الإشارة إلى أحد القيادات العليا بأنه «الخنزير فلان»، بدلا من «الرئيس فلان»، أو «الملك فلان»، أو «العاهل فلان». ويؤدي هذا الفعل، وفقا لماركيزون، إلى الخلاص من أكاذيب اللغة العقائدية ودلالاتها، وإلى تحطيم الهالة التي تحيط بأولئك الموظفين والحكام. إضافة إلى سحب الاسم المرئي الكاذب الذي يتباهون بحمله» نفسه ٦٥. ويرى ماركيزون أن هذه الممارسة لا بد وأن تندرج في إطار السياق السياسي للرفض الأكبر، لأنها تشكل بالفعل مظهرا من مظاهر التحرير.

٣- استخدام المفردات السامية المتعالية، ذات المكانة الخاصة في المجتمع السائد، وتحميلها بمفاهيم عادية يومية تخص جماعة «الرفض». مثل إعادة استخدام كلمة «الروح»، ذات المفهوم السامي النقي في الكون الخطابي المسيطر، في تراكيب جديدة، لتحمل دلالة جديدة، تنزع ما تنطوي عليه من سمو، وتدخلها في سياق الكون الخطابي لجماعة الرفض. مثل تسمية جماعات السود «البلون»^(١٠) «غذاء الروح»، وتعريف أنفسهم بأنهم «أخوة في الروح».

٤- استخدام المفردات السلطوية في سياق جديد ينزع عنها سلطويتها. مثل استخدام بعض الشباب لتعبير «سلطة الزهور»؛ إشارة إلى القوة التي يكتسبها فعل إلقاءهم الزهور على الشرطة في المظاهرات. ويؤدي هذا الفعل إلى نقل السلطة ممن يفترض فيه امتلاكها؛ أعني الشرطي ذي البندقية والعصا، إلى من يفترض فيه عدم امتلاكها؛ أعني المتظاهر الممسك بالزهور. وينطوي كذلك على سحب السلطة من البندقية والعصا لتصبح كامنة في الزهرة.

لإنجازها، والآثار التي تنتج عنها. أما نقده لنمط التحليل اللغوي السائد لدى الفلاسفة التحليليين، وتحديدده لسمات التحليل الذي يقترحه، وتنظيره لأشكال مقاومة الخطاب السياسي اللغوي المسيطر، سواء تلك التي مورست بالفعل من قبل جماعات الرفض أو تلك التي يدعو لممارستها، وتفسيره، وإن كان حدسياً، للطريقة التي تعمل بها لغة السياسة— فهي مما يمكن استثماره في محاولة تأسيس إطار نظري لمقاربة نقدية لنقد لغة السياسة.

الهوامش والاحالات

١- لم أستطع العثور على أية دراسة بغير العربية تخص نقد ماركيزو للغة السياسة. ولم يرد ذكر أية دراسة عن أفكار ماركيزو حول لغة السياسة في البليوجرافيا التي أوردتها الموقع الرسمي لهربرت ماركيزو على الشبكة الدولية للمعلومات، الذي يقدم ببليوجرافيا لما كتب عن ماركيزو بالفرنسية والألمانية والإنجليزية (عنوان الموقع: www.marcuse.org/herbert). تاريخ الدخول إلى الموقع ٢٢-٠٦-٢٠٠٨. والدراسة الوحيدة التي استطلعت الوصول إليها، وعُنت ببعض أفكار ماركيزو حول لغة السياسة هي دراسة كيلنر Kellner ٢٠٠٦، بعنوان «من '١٩٨٤' إلى 'الإنسان ذو البعد الواحد': أفكار نقدية حول أورويل وماركيزو». وهي مقال صغير الحجم، لا يتجاوز سبع صفحات. ويتوقف عند تقديم مقارنة أولية بين نقد ماركيزو للغة السياسية ونقد أورويل لها. لكنه في الواقع يستغفل جل طاقته في رصد الاختلافات بين الأصول الفكرية لهما، وأسلوب كتابتهما. وتتبقى فقرات معدودة تخص مقاربتيهما للغة السياسية. وقد أشار كيلنر لدراسة أخرى عُنت بالمقارنة بين نقد لغة السياسة عند أورويل وماركيزو: هي دراسة إيان سلاتر «أورويل وماركيزو»، لكن الباحث لم يستطع الوصول إليها. ولم تحظ أفكار ماركيزو حول لغة السياسة باهتمام يذكر من اللغويين العرب. ويمكن تبرير ذلك بأسباب مختلفة: من بينها غياب التوجه النقدي في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة. إضافة إلى تناثر أفكار ماركيزو حول اللغة في ثنايا دراساته، وارتباطها الشائك بفلسفته بعامة، وامتزاج تحليلاته وتوصيفاته، بإرهاصاته ونبوءاته وتحريضاته.

٢- بعض معلومات عن النظرية النقدية ونقد لغة السياسة .
٣- الكتابان مترجمان إلى العربية. وقد صدر «الإنسان ذو البعد الواحد» بترجمة جورج طرابيشي وسوف نعتمد على طبعته الثالثة الصادرة عن دار الآداب في بيروت ١٩٨٨. أما «مقال في التحرر» فسوف نعتمد على ترجمة عبد اللطيف شرارة الصادرة عن دار العودة في بيروت ١٩٧١، تحت عنوان «نحو ثورة جديدة». وقد احتجنا، في مواضع محدودة، إلى الرجوع إلى الترجمات الإنجليزية، حين لم تسعفنا الترجمات العربية في الفهم.

٤- ركز ماركيزو في «الإنسان ذو البعد الواحد» على استخدام اللغة في المجتمع الأمريكي. وقد خص استخدام اللغة في المجتمع السوفيتي بتحليل خاص في سياق دراسته للماركسية السوفيتية، التي صدرت بعنوان «الماركسية السوفيتية: تحليل نقدي» في عام ١٩٥٨.

٥- من الواضح أن التركيب الإضافي الأخير «مصر ناصر» يستهدف

بأعلى صوت ممكن، ضحك من القلب، ربما يربكها قليلاً، وربما يولد لدى الآخرين ضحكا مشابها يحفزهم على إدراك الكذب.

يمكن إدراج معظم العمليات السابقة في إطار التحويل الدلالي للمفردات بواسطة إعادة التعريف أو إعادة التسمية. وهي عملية هدفها الأساس بناء معجم خاص لجماعات الرفض، يواجه معجم الجماعات المسيطرة. ومن المؤكد أن استبدال المعجم، مع أهميته الشديدة، لا يكفي وحده لتهديم الكون اللغوي القائم. فقواعد اللغة، أية لغة، وظواهرها البلاغية ربما تكون ذات تأثير أقوى في تدعيم السلطة القائمة. ربما كان ماركيزو معنيا باستعراض ممارسات نقدية حدثت بالفعل، على الرغم من أن هذه الممارسات لم تكن فاعلة بشكل جذري في مواجهة لغة السياسة المسيطرة. ومع ذلك فإن هذه الممارسات سوف تظل ملهمة ودالة لكونها، في معظمها، ممارسات عفوية وشعبية وتمثل جزءاً من حركات رفض اجتماعي^(١١).

لقد ركز ماركيزو في نقده للغة السياسية على المجتمعات الصناعية الكبرى؛ خاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي السابق. وعلى الرغم من تشابه بعض خصائص لغة السياسة المستخدمة في هذه المجتمعات مع لغة السياسة المستخدمة في مجتمعات أخرى، فإن لكل مجتمع لغة سياسية ذات تأثير خاص واستجابات خاصة. ولا يرجع ذلك إلى الخصوصية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات فحسب، بل إلى خصوصية اللغة التي تستخدمها كذلك.

ربما لا يمدنا ماركيزو بتنظير لإجراءاته المستخدمة في تحليل الخطاب السياسي، وربما اتسمت قائمة مصطلحاته ببعض الغموض^(١٢). إضافة إلى لغته ذات الطابع المجازي، والتي تميل إلى التكرار والإطناب، والتي وصفها آلن هاو (٢٠٠٣) ذات مرة بـ «النثر المنيع، الذي لا يكاد يفهم منه شيئاً». وعلى الرغم من ذلك فإن كتابات ماركيزو تنطوي على استبصارات مدهشة خاصة فيما يتعلق بتحديد له طبيعة العلاقات التي تربط بين الإنسان واللغة والمجتمع. إضافة إلى مقدرته المتميزة على الكشف عن الظواهر المميزة للغة أحادية البعد والوظائف التي تسعى هذه الظواهر

الوقت المعلوم ينفذ الشخص موضوع التنويم تعليمات منومه؛ فقد ينصب مظلة شاطئ في غرفة الجلوس، أو يقدم لكل من الجالسين كوبا من اللبن، أو يركض على أربع وينبح كالكلب. وعندما تسأله لماذا يتصرف بهذه الغرابة فإنه يقدم على الفور تفسيرات معقولة لتصرفاته هذه. هذا التفسير يقدم مثالا لا ينسى على قدرة العقل على التبرير (العقلنة) Rationalization. وبينما يعرف كل واحد من حاضري تجربة التنويم السبب الحقيقي لهذه التصرفات الغريبة، فإن أي مشاهد لم يربداية التجربة، قد يقتنع تماما بمبررات الشخص موضوع التنويم. « وربما لا تختلف بعض التبريرات التي يقدمها المدافعون عن تأييدهم لبعض السياسيين عن التبريرات التي يقدمها هذا الذي «ينبح كالكلب» لنباحه. إن ربط تأثير لغة السياسة بتأثير التنويم المغناطيسي قد يولد بعض الشك في إمكانية إبطال هذا التأثير. ويمهد لتقبل وتفهم مختلف أشكال المقاومة، مهما بلغت حدتها ونوعها، من الخاضع للتضليل اللغوي.

٨- كان الطلاب يرفعون لافتات مكتوب عليها «الميمات الثلاثة»، مشيرين إلى ماركس وماوتسي تونغ وماركيوز.

٩- قد يكون من المثير مقارنة اللغة التي استخدمتها الإدارة الأمريكية قبيل وأثناء الغزو الأمريكي لفيتنام (١٩٦١-١٩٧٥) سواء في التبرير للغزو أو وصف عملياته العسكرية والجنود الأمريكيين و«العدو»، باللغة التي استخدمتها قبيل وأثناء غزوها العراق (٢٠٠٣-؟). وثمة حدس مبدي لدي بوجود تشابهات عديدة، على الرغم من فارق اختلاف الحداثين وفارق الزمن.

١٠- البلوز Blues أغاني يؤلفها ويلحنها ويغنيها الأمريكيون السود. يغلب عليها الشجن. وتتألف من مقاطع شعرية ثلاثية الأبيات.

The American Heritage Dictionary of the English Language. 2000.)
(Houghton Mifflin Company)

١١- من غير العسير الوقوف على ممارسات نقدية مشابهة قامت بها جماعات الرفض الاجتماعي في معظم المجتمعات. وعلى سبيل المثال، يذكر ناصر أحمد إبراهيم في كتابه «الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر» (نشر دار الآفاق العربية، ١٩٩٨)، أن الأهالي كانوا يمارسون تمردا من نوع خاص على السلطة المسيطرة، تمثل في إطلاق تسميات ساخرة ومثيرة للتهكم على ممثلي السلطة. ويورد المؤلف أمثلة متعددة لهذه التسميات، مثل إطلاقهم «زلة السم» على محمد باشا، و«الشيطان» على إبراهيم باشا، و«المجنون» على حسين باشا الدالي. إلخ.

١٢- مثل المصطلح المركزي في نقده للغة السياسية، وهو «عالم الإنشاء المغلق».

أكثر من مجرد الربط بين الحاكم والبلد التي يحكمها. وهو ما يوضحه التصور الاستعاري الذي يقوم عليه التركيب: أعني: الأمة/ شخص. هذا التصور يوظف في أحيان كثيرة لتبرير العدوان على الأمة بعد تحويلها -استعاريا- إلى مجرد الشخص الذي يحكمها، والذي يمكن تحويله -استعاريا كذلك- إلى شيطان أو إرهابي. وعلى ذلك فإن تعبير «مصر ناصر» لا ينفي الشعب فحسب، بل التاريخ كذلك. إن تركيب «مصر ناصر»، في المثال السابق، يتحرك في اتجاه مصاد لما يحدده ماركيز. إنه لا يقيد الشخص، وإنما الوطن. فحين تتأسس علاقة/إضافة/ ملكية بين الرئيس والوطن لا يتحول الأفراد فحسب إلى زوائد أو تابعين لرئيسهم. . بل يتحول الوطن، بمواطنيه وجغرافيته وتاريخه إلى ملكية للرئيس. وهي استعارة أخرى تخفي الكثير، وتعرض على الكثير. ويمكن أن يؤدي التركيب، خاصة حين يطلق في معرض الوصف إلى ما يشبه علاقة النسب (الأبوة). إن الرئيس (الأب) هو الذي ينجب الوطن (الابن). وهو، من ثم، أب أبنائه (المواطنين). والوطن (الابن) ما كان ليجود (أو يزدهر ويتطور. إلخ) إلا بعمل الأب (الرئيس). والتركيب نفسه قد ينتج استعارة أخرى تختلف في طرفيها لكنها تؤدي الوظيفة نفسها، هي استعارة: الرئيس زوج، والوطن زوجته. وهي استعارة ينتجها التركيب في إطار الثقافات التي تنسب المرأة لزوجها (مثل كثير من المجتمعات الريفية في مصر). والعلاقة بين الرئيس والوطن وفق هذه الاستعارة علاقة عصمة. فالوطن في عصمة الرئيس. والمواطنون: أبناء الوطن وبناته، تحت وصايته. هذه الاستعارة نفسها تنتج استعارة أخرى يرددها المنتفعون من أي حكم حين ينادون ب «زواج كاثوليكي» بين الوطن والرئيس؛ أي أن يحكم مدى الحياة. وتنطوي هذه الاستعارة على وصف للوطن بأنه أنثى، وحكم على بقية المواطنين بالخصاء، فليس ثمة ذكر إلا السيد الرئيس. ومن ثم فإن الأوطان (ومواطنيها) التي ترغب في أن تصل إلى الاستقلال والنضج، وفق الاستعارتين السابقتين، يجب عليها أن تمارس «قتل الأب»، و«قتل الزوج» أيضا. وأن تنتمي فحسب إلى ذاتها: أعني مواطنيها.

٦- دراسة نقدية لاستخدام الاختصارات في أسماء الأسلحة النووية يمكن الرجوع إلى دراسة مارتن مونتجموري ١٩٩٥ Mont-gomery بعنوان «مدخل إلى اللغة والمجتمع» ٢٣١-٢٣٦. ويشير مونتجموري إلى دراسة أخرى تفصيلية قدمها بول شيلتون في عام ١٩٨٢، بعنوان «كلامنوي: اللغة النووية والثقافة والدعاية».

٧- يذكر إدوارد بونو في كتابه «التفكير المتجدد» ص ١٥، الصادر بترجمة إيهاب محمد عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في ٢٠٠٥، أنه «في حالة التنويم المغناطيسي يمكن الإيحاء للشخص المنوم بفعل أشياء غريبة بعد الإفاقة من غيبوبة التنويم. وفي